حكاية بنت السلطان أنموذج للتحليل

مقاربة سيميائية

بن سالم حورية

جامعة -تيزي وزو-

مقدمة منهجية:

لقد عرفت العلوم الإنسانية، في عصرنا الحديث، تطوّرا مذهلا في مجال تحليل الخطاب الأدبي الّذي ظلّ سنوات عدّة حبيسا في نطاق العلاقات البنوية الدّاخلية للأثر الأدبي الّذي كانت أطروحات النّقد القديم تعتمد عليها، إذ يرجع النصّ إلى كاتبه ومحيطه (وحدة الزمان والمكان والمؤثرات أي ثلاثية تين)، ليغدو النصّ، في ظلّ هذه الرؤية الضيّقة، مجرّد وثيقة تحتاج هي الأخرى إلى وثائق أخرى، بغية شرحها وتأويلها وفكّ مغاليقها ورموزها، بينما أضحى مفهوم مصطلح الخطاب، في ظلّ النّقد الأدبي العالمي، أداة إجرائية لتحليل بنوي وعلامي ودلالي للأثر الأدبي بالنّظر إليه ككيان مستقلّ، قائم بذاته، وفي علاقته بمنتجه ومنشئه ومتلقّيه وبالنّصوص الغائبة عنه. يمثّل الخطاب الأدبي جهازا تنظيريا أنتجته مجموعة النشاطات المعرفية المتنوّعة وأدوات منهجية متباينة.

سنسعى، من خلال معالجتنا للخطاب الأدبي الشّعبي، إلى توضيح المفاهيم وتأصيلها، لتحقيق مشروع معرفي يعمل على تحقيق حداثة الدّراسات الشّعبية. وقد راعينا، في تحليلنا لخطاب النصّ الشّعبي، التسلسل السّردي المبني على العلاقات السّياقية، ثمّ ننتقل إلى استجلاء العلاقات الثّنائية الضّدّية الّتي يتضمّنها النصّ الّذي نعتزم تحليله. يمثّل نصّ الحكاية المراد تحليله هنا تتابعا للأحداث في

مستوى التمظهر، وهذه الأحداث مجتمعة تشكّل، بدورها، المعنى العميق للرّسالة المضمّنة.

بادئ ذي بدء، نشرع في تقطيع نصّ الحكاية إلى مقطوعات، وكلّ مقطوعة يتمّ تقطيعها إلى متواليات، وكلّ متوالية إلى وظائف، ثمّ ننتقل إلى دراسة الشّخوص بالنّظر إليها في علاقتها ببعضها البعض ممّا يتيح لنا فرصة الوصول إلى استجلاء النّظام الّذي يعمل على انبثاق الأدوار الغرضية والعلامات المتبادلة بين المشخّصين. ونستعين هنا بخطاطات توضيحية.

يمثّل نصّ حكاية "بنت السلطان" ملفوظا مؤدى عن طريق وحدات توزيعية محدّدة، يتمّ تقطيعها إلى وظائف ومتواليات. ونقصد بالوظيفة فعل الشّخصية منظورا إليه من حيث دلالته على نمو الحدث القصصي وتطوّر الحبكة، وهي تمثّل أبسط وأصغر وحدة مقطعية في الحكاية، تسهم في خلق مشهد قصصي متكامل الجوانب يقابل التوالي المنطقي لثلاث لحظات متتابعة: ما قبل | أثناء | الما بعد. ونحذو في ذلك حذو "فلاديمير بروب" في تعيين كلّ وظيفة عن طريق مراعاة وجهة نظر البطل، وكذلك "كلود بريموند" في تعيينه كلّ وظيفة عن طريق مراعاة وجهات نظر باقي شخصيات الحكاية.

ثمّ ننتقل إلى استخراج الأدوار الغرضية بهدف تمييز علاقة الأفعال بالشّخصيات لسبب هو أنّ فعل وظيفة ما يصعب، بل يستحيل أن يحدّد إلاّ بالنّظر للشّخصية المستفيدة. تتضمّن كلّ وظيفة غرضا يشكّل محورا دلاليا ذا قطبين تتجاذبهما علاقة تضاد يتوسّطهما عنصر ثالث يكون متّصلا بهما ومنفصلا عنهما في آن واحد يعمل على تحقيق الوظيفة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ إنجاز مسار وظيفة ما مرسوم للحظتين هما لحظة التضاد وزواله، كما تسجّل الوساطة حضورها في هذا التحليل؛ ونميّز عادة بين صنفين من الوساطة، إذ ثمّة الوساطة الّتي تتحقّق في مستوى كلّ متوالية حتّى تسمح بالمرور من الحالة الافتتاحية إلى الحالة النّهائية، وثمّة الوساطة بين الدّورين الغرضيين المتضادين في مستوى كلّ وظيفة عن طريق ظهور طرف

ثالث يكون في علاقة اتصال بهما وانفصال عنهما في نفس الوقت ينهي تحقيق الوظيفة.

أمّا عن تصنيف الوظائف، فيمكن إدراجها في مجموعتين محوريتين هما على التوالي: الوظائف الإنجازية والوظائف الحالية. تقوم الأولى بتغيير الوظائف تحقيقا لسيرورة الفعل القصصي ودوراته، وتمثل الثانية توقّف سيرورة الفعل القصصي وبلوغه وضعا شبه نهائي، وهو وضع يتميّز عادة بالاستقرار النّسبي من شأنه أن يفتح أو يغلق مسارا أو جملة من المسارات الفعلية، وهي أشبه الوظائف الّتي تؤلّف الموقف الافتتاحي والموقف الختامي في النّصوص الشّعبية الشّفوية؛ ويتمّ تحديد الوظائف اعتمادا على نتائجها من حيث تطوّر حبكة نصّ الحكاية.

أمّا عن علاقات الأدوار الغرضية، فتوصف حسب الملامح المميّزة للشّخوص الّتي تدخل في تكوين كلّ متتالية، وحسب القيم الغرضية الّتي تحملها أو تتبناها كلّ شخصية حتى يتسنّى لنا تحديد التضادات فيما بين هذه القيم وذلك طيلة المسار السردي للحكاية، ويتمّ تحديد الأدوار الفاعلة في المسار السّردي للحكاية انطلاقا من حزم العلاقات الّتي تصل كلّ شخصية ببقيّة العناصر الأخرى في الحكاية وتوزيع الوظائف والأدوار الغرضية في متواليات يكون من منظور التسلسل الزّمني والبناء المنطقي لنصّ الحكاية نظرا لأهميتهما في استجلاء مضمون الرّسالة داخل النصّ الحكائي.

أمّا عن اقتفاء دلالة المتواليات الّتي تشكّل بدورها الحكايات الفرعية لنصّ الأم، فيتم عن طريق تقصي الأدوار الغرضية وشبكات علاقاتها المتبادلة للوصول إلى تعيين النظم الاجتماعية والثقافية للوسط الّذي نمت فيه الحكاية ككل.

كما لا نغفل سبر أغوار الصور والتجسيدات الّتي صوّرت عن كثب القيم والمعاني المشكّلة للرّسالة الّتي تضمنتها الحكاية، وكذا محاولة الكشف عن السياق الإدراكي الّذي يمدنّا بتصوّر خاص بالجانب المعرفي حيث التعرّف على النّظرة إلى العالم الّتي ضمنّها الخطاب المسرود، وكذا محاولة التنقيب عن

السياق النفسي – الاجتماعي لأنّه يزوّدنا بالحالات والتحوّلات النّفسية وتبيان علاقتها بالنّظام الاجتماعي الّذي شخّصه كخطاب.

نصّ الحكاية "بنت السلطان"

أنموذج للتّحليل

- المسار السردي:

* وقائع الحكاية:

- كان لسلطان بنت فائقة الجمال، كان الفتيان والرجال يهابون والدها ولا يتجرّأون على القدوم إليه ليطلبوا يدها للزواج.

- تقدّم إليه رجلان، أحدهما وسيم ومغفّل، وثانيهما قبيح وذكي. ارتضت لنفسها الوسيم المغفّل أمّا السلطان فلم يرض باختيارها.

- في يوم من أيام يناير، اصطحبت الفتاة الرجلين إلى السّوق وقد استطت حصتا لشراء رأس ثور مقابل الحصان وحمولته، قبل الوسيم في حين استنكر الذكي القبيح القرار. اهتدى الذكي إلى حيلة تمكّنه من استعادة الفتاة.

- واصلوا سيرهم إلى أن جنّ اللّيل عليهم ثمّ طلب الجميل الوسيم من صاحب أحد المنازل أن يبيتهم اللّيلة، فاستضافهم عنده. وفي الصّباح الباكر، حين استعدوا للرّحيل، منعهم صاحب المنزل وطلب منهم أن يتخلّيا عن الفتاة ثمنا لقضائهم تلك اللّيلة عنده، فتنازل زوجها عنها. غضب الذكي ثمّ لجأ إلى حيلة مكّنته من استرجاع الفتاة.

- واصلوا سيرهم وطريقهم إلى أن خيّم الظّلام عليهم، وقد لمح الوسيم منزلا وسط غابة، فأصرّ عليهم أن يبيتوا تلك اللّيلة داخله. وما هي إلاّ لحظات قلائل حتى أقبل "واغزن"، صاحب المنزل. فرح واستبشر خيرا لرؤيته تلك الفتاة الجميلة. باتوا ليلتهم ثمّة، وفي الصّباح ، حين استعدوا للرحيل، طلب الغول منهما أن يتنازلا له عن الفتاة، فقبل زوجها شرطه. اهتدى الذكي القبيح إلى حيلة مكّنته من تخليص الفتاة من الغول.

- وأخيرا، تخلّت الفتاة الجميلة عن الرّجل الوسيم لتتزوّج بالذكي القبيح؛ فرح أبوها للخبر السار وعمّت المسرّات الجميع.

- التحليل:

بعد أن تعرّضنا للمسار السّردي بإحصائنا لوقائع الحكاية تمهيدا لتجلي الخطاب، تبيّن لنا أنّ المتوالية التمهيدية تتأسّس على برنامج سردي تحقّقه الأطراف التالية: السلطان، البنت، الرّجل القبيح المنظر والذكي والرّجل الوسيم والمغفّل. يمثّل الرجل الذكي القبيح المنظر ذات الحال وذات الفاعل في آن واحد وبنت السلطان موضوع – قيمة. نلقى الرّجل القبيح الذكي في ملفوظ الحال البدئي يعاني من انفصاله عن بنت السلطان، ونراه في ملفوظ الفعل تمكّن من إنجاز الفعل واتّصل في النهاية بالبنت وأفلح في استبعاد الرّجل الوسيم المغفّل الّذي تخلى وانفصل عن الفتاة الجميلة ليفسح المجال للرّجل القبيح المنظر والذكي أن يتّصل بها، وهو ما يجسّد الجزاء الّذي ناله كلّ طرف مشارك في الفعل.

أمّا البرنامج السّردي الثاني الّذي تمّت الإشارة إليه أعلاه، فقد حقّقته ذات الفاعل (الرّجل القبيح المنظر الذكي)، ويمثّل هنا عنصر المعرفة (كشيء – قيمة) نابع من ذات الفاعل نفسها (الذكاء كمساعد)، وقد قام عامل الذكاء بدور المعارض للرّجل الوسيم المغفّل، إذ عمل على إعاقة وصل الرّجل القبيح المنظر والذكي بينه وبين بنت السلطان، وبذلك يكون البرنامج السّردي قد أسهم في تشكيل كيان ذات البطل وأبانت القوّة الموجّهة للفعل: تعويض النّقص فرضا للذّات باعتبارها علاقة ذاتية ما بين الأفراد ذات تشكيلة إنسانية، إذ كان ينطوي على أهلية الفعل، فخلق الشّعور بالذكاء في ذات الفاعل الرّغبة في الفعل وكان وراء قناعته بوجوب الزّواج ببنت السلطان مهما كلّفه ذلك من متاعب وصعاب ومهما طال الزّمن أو قصر. وصار ذات الفاعل متمتّعا بالشّعور بوجوب الفعل

والرّغبة في إنجازه والقدرة على تحقيقه ومعرفة كيفية التصرّف في المواقف الّتي تعرض سبيله.

وفي النهاية، تمكّن الرّجل القبيح المنظر الذكي أن يحقّق مشروعه، إذ تمثّل الجزاء، في نهاية المتوالية، في إشباع رغبته وهو الزّواج من بنت السلطان الفائقة الجمال في نطاق علاقة المرسل بذات الفاعل، تمّ الاتصال بينه باعتباره ذات حال وبنت السلطان باعتبارها موضوع قيمة. ونلاحظ هنا أنّ ذات الحال وذات الفاعل تتحدران وتتبعان من نفس الشّخصية القائمة بإنجاز الفعل (الرّجل القبيح المنظر الذكي).

أشار "جوزيف كورتيس" إلى شروط تحقق ذات الفاعل في الوظائف الإنجازية مشروعها وهي كالآتي:

ف ∩ ش ∩ (و | ر) + (ق | م)*

وإذا جئنا لتطبيق هذه الشّروط على ذات الفاعل الرّجل القبيح المنظر الذكي، نلفيه في علاقة اتصال مع الشّيء المرغوب فيه وهو الزّواج والاقتران ببنت السلطان، وهو أيضا في علاقة اتصال مع الرّغبة، إذ نجد لديه رغبة جامحة في امتلاك بنت السلطان، كما له القدرة والمعرفة في كيفية الحصول عليها، إذ يخلّص البنت وزوجها الشّاب الوسيم المغفّل في كلّ مرّة من المأزق[1].

---

* - تنبيه:

ف: الفاعل - ش: الشّيء المرغوب فيه - و: الواجب - ر: الرّغبة - ق: القدرة - م: المعرفة

∩: علاقة اتصال.

1 - Voir Joseph Courtès, Introduction à la sémiotique narrative et discursive, France, 1980, p. 70.

سمحت هذه النتيجة للسلطان أن يحقّق ذاته من جديد ويعترف لابنته على جودة اختيارها للرّجل المناسب، كما حقّقت ذاتها هي الأخرى لأنّها اكتشفت أنّ الجمال وحده غير كاف إن لم يتوّج ربّه بذكاء وفطنة، فقد علّمتها تلك المواقف الصّعبة الّتي عاشتها مع الرّجل الوسيم لولا تدخّل الرّجل القبيح المنظر في كلّ مرّة لإنقاذها وإنقاذ شرفها أنّ كلّ ما يلمع ليس بذهب خالص. ويتبيّن لنا أنّ جميع هذه المواقف تمثّل تأويلا لقيمة ما أنجز في المسار السّردي لنصّ الحكاية، ونال كلّ واحد من الفواعل جزاءه، على حسب الدّور الّذي أدّاه وأنجزه. ويمكن توضيح البنية الفاعلية للموالية المحلّلة بالترسيمة التالية الّتي تحدّد أطراف الفعل السّردي باعتباره فاعلين يقوم كلّ واحد منهم بإنجاز دور غرضي تفرضه طبيعة البناء الحكائي:

الزّواج (مرسل) _____ موضوع القيمة _____ الأسرة (مرسل إليه)

الذكاء (مساعد) _____ الرّجل القبيح (ذات الفاعل) _____ الرّجل الوسيم (معارض)

ويمكن توضيح وضع كان معكوسا في البداية ثمّ أعيد لحالته الطّبيعية في النّهاية بالخطاطة التالية:

$$\frac{\text{ما قبل}}{\text{ما بعد}} \cong \frac{\text{وضع معكوس}}{\text{وضع طبيعي}} \cong \frac{\text{نقص}}{\text{قضاء على النقص}}$$

وقد عبّر "ليفي ستروس" عن هذا الانتقال بمعادلة تسجّل عملية الوساطة الّتي تنقل موقفا إلى موقف مغاير له وهي[1]:

---

[1] - Voir Claude Lévi – Strauss, Anthropologie structurale, Plon, Paris, 1974, p. 252.

ر

$$F_x(a) : F_y(b) \cong F_x(b) : F^{a-1}(y)^1$$

ولكي نوضّح أكثر هذه المعادلة نردّ كلّ رمز لما يدلّ عليه في نصّ حكاية "بنت السلطان": فنجد أنّه في الموقف الأوّل $F_x(a) : F_y(b)$ يمارس الشاب الوسيم المغفّل (a) في كلّ مرّة اتخاذ القرار الأحادي (F_x) فيأخذ صورة $F_x(a)$، في حين أنّ الشاب القبيح الذكي (b) يتعرّض لتسلّط الشاب الوسيم المغفّل (F_y) فيأخذ بذلك صورة $F_y(b)$، في حين نجد أنّ الشّاب القبيح الذكي (b) يصير يمارس على الشّاب الوسيم المغفّل (a) التسلّط بفضل ذكائه في تخليص وإنقاذ بنت السلطان من المتاعب الّتي يسبّبها لها زوجها المغفّل، فيأخذ صورة $F_x(b)$، في حين نجد أنّ الشّاب الوسيم صار منزوع القرار، فيأخذ صورة $F^{a-1}(y)$. وعليه، سلبت منه وظيفة اتخاذ القرار الأحادي وتهميش الطّرف الثاني لتضاف إليه صفة المهمّش. وعلى هذا المنوال نلاحظ أنّه وقع تبادل في الموقع، إذ أضحى الشاب القبيح الذكي يمارس وظيفة اتخاذ القرار، في حين غدا الشّاب الوسيم المغفّل مهمّشا، لا قرار له، وأصبح تهميشه قيمة مضفاة عليه وليست وظيفة. وهكذا نخلُص إلى أنّ حالة الاستقرار الأخيرة تمثّل مرحلة جديدة في بنية المتوالية تختلف عن المراحل السّابقة.

نلاحظ أنّ المتوالية جاءت مركّبة من ثلاث مراحل، تبدأ بحالة توازن، حيث كان السلطان يحيا حياة مستقرّة مع عائلته، وتنتقل إلى حالة اختلال في التوازن حينما ارتضت بنته الزّواج بالرّجل الوسيم المغفّل وامتنعت عن الاقتران بالرّجل القبيح الذكي، وتنتهي بحالة توازن جديدة كما نُعلِمه أنّها انفصلت عن الشّاب الوسيم المغفّل واتصلت بالشاب القبيح المنظر الذكي، أي أنّها تقوم على استقرار، فاضطراب، فاستقرار.

---

[1] – F: الوحدة الوظيفية – y،x : القيمة الوظيفية – a، b: القيمة المضفاة على الوظيفة.

وهو الأنموذج الذي رأى تزفيتان تودوروف: ((أنّه يمثّل الحدّ الأدنى لأيّة قصّة، فتبدأ بقوّة ثابتة تهزّها قوّة أخرى بطريقة ينجم عنها فقدان التوازن المبدئي، ثمّ لا تلبث أن تأتي قوّة ثالثة في اتجاه معاكس لتعيد التوازن مرّة أخرى، فيتكوّن الأنموذج بذلك من خمسة وضعيات، التوازن، عملية التغيير، انعدام التوازن، العمل على استعادته، التوازن الجديد))[1].

أمّا فيما يخصّ تنظيم المكان والدّلالة الاجتماعية للحكاية، فقد تذكر الحكاية أنّ الشابين ينتميان إلى عالم الرّيف، والقاص الشّعبي لم يتح فيها الفرصة للشّاب الوسيم أن يجتاز عتبة قصر السلطان ليتذوّق وينعم بنعيم أهل القصر لا لشيء إلاّ لأنّ السلطان لم يرض به صهرا، ممّا جعل البنت، تحت تأثير وسحر جمال الوسيم، تنفصل هي الأخرى عن عالم السلطة الأبوية لتتّصل بعالم السلطة الذاتية الغرامية، إلاّ أنّ هذا الانفصال سيزول بنهاية ملفوظ الحكاية حينما تكتشف أنّ ملمح الجمال لم ينفعها ولن ينفعها في حياتها، إذ قامت باستبداله بملمح الذكاء لأنّه عنصر الحياة ما دامت هناك حياة. وهكذا تنفصل بنت السلطان عن الشّاب الوسيم لتتّصل بالشّاب الذكي ويلجان عتبة القصر برضا السلطان وتعمّ المسرّات الجميع. وهكذا يكون الشّاب القبيح الذكي قد ثأر لنفسه وللسلطان وذلك بإبعاد الشّاب الوسيم من بنت هذا الأخير لأنّه وقف حائلا دون تحقيق رغبته. وهكذا انتقل الشّاب القبيح المنظر الذكي من فضاءين في وجوده الكينوني: يمثّل الفضاء الأوّل مصدر عدم الرضا والسّخط، إذ كان يشعر بالدونية، ويمثّل الفضاء الثاني مصدر رضا لأنّ الشّعور بالدونية والظّلم تحوّل إلى انتصار بطولي.

وقد ضمّن القاص الشّعبي خلف المسار السّردي للحكاية، رسالة مبثوثة وهي أنّ الزّواج في منطقة الحكاية (المجتمع القبائلي) يعتمد قيمة الجمال الجسدي من طول ورشاقة ورقّة وبشرة بيضاء وشعر أشقر. وقد أثبتت الحكاية

---

[1] - Voir Tzvetan Todorov, Poétique du prose, Éditions du récit, pp. 51-83.

أنّ هذا المعيار غير كافٍ إن لم يُتوّج صاحبه بخلاق وذكاء وفطنة، لأنّ الجمال الجسدي مآله الزوال عكس الجمال النفسي الذي يبقى ببقاء صاحبه.

أمّا عن الدلالة النفسية للحكاية المحلّلة فتكمن في شعور السلطان بعدم الرضا بسلوك ابنته حينما ارتضت لنفسها الزواج بالشاب الوسيم المغفّل لأنّه يعرف أنّ هذا الاختيار نابع عن اللاوعي واللانضج، ولم يكن صادرا عن وعي وتبصّر وحكمة ممّا أثار شجون الوالد واعتراه القلق والخوف على مصير بنته الجميلة، ولأنّه يعي تمام الوعي أنّ الجمال إن لم يزيّنه الذكاء أضحى طعاما بلا طعم ومكسبا مآله الزوال السّريع. ظلّت نفس السلطان يسيطر عليها الخوف من بداية المسار السّردي للحكاية إلى نهايته، إلاّ أنّه عرف مسارا مغايرا لِما كان عليه وحلّت به السكينة وزال النّقص عندما بلّغته ابنته أنّها تزوّجت من الشاب القبيح الذكي فانتابته حينذاك الفرحة وعمّ السّرور الجميع.